مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب المجلد 15 العدد 1، 2018، ص ص 273- 301

الوعي الشعبي للهوية القومية
دراسة في سيرة الأمير حمزة البهلوان- حمزة العرب

شفيق طه النوباني *

تاريخ الاستلام 2017/8/14 تاريخ القبول 2017/9/12

ملخص

تسعى هذه الدراسة للتوصل إلى النظرة الشعبية إلى الهوية القومية العربية من خلال السيرة الشعبية متمثلة بسيرة "الأمير حمزة البهلوان ـ حمزة العرب"، حيث تتمثل هذه الهوية بالقيم التي تحتكم إليها سلوكات البطل والشخصيات الرئيسية، فتؤثر في مجريات أحداث السيرة، كما تسهم في بناء علاقات الشخصيات الممثلة للهوية بتلك الشخصيات التي تمثل الآخر. وتعتمد الدراسة في إجراءاتها تناول مفهوم الهوية القومية، وعلاقة هذا المفهوم بالسيرة الشعبية، ثم سيحاول الباحث التوصل إلى أهم المفردات التي شكلت الهوية القومية العربية، وسينتقل بعد ذلك إلى تجليات هذه المفردات في عدد من المفاهيم، وهي: التعامل مع الآخر، والسلطة والملك، والتعامل مع المرأة. وسيسعى الباحث بعد ذلك إلى تعرف ملامح النزوع نحو التجديد في الهوية القومية من خلال السيرة نفسها.

الكلمات المفتاحية: السيرة الشعبية، سيرة حمزة العرب، الهوية القومية.

مقدمة: السيرة الشعبية والهوية القومية

يعد الأدب الشعبي واحدًا من أهم مكونات الثقافة لأي شعب من الشعوب[1]، ولا شك في أن السيرة الشعبية التي تناقلتها الأجيال العربية منذ العصر المملوكي تمثل واحدة من أهم الأوعية الحاملة للثقافة العربية، فقد تناقلت الشعوب العربية هذه السير في البلدان العربية وفق تغيرات محدودة لا تتجاوز الرؤية الكلية لها، وهذا ما يؤكد أن هذه السير لا تتحدد بالتعبير عن ثقافة مجتمعات محلية بل تشير إلى ثقافة أمة.

يحيل مفهوم الهوية "إلى السمات والخصائص الثقافية المميزة للناس في العنصر والعرق والقومية والجنوسيّة والمعتقد"[2]، وتوظف كل أمة من الأمم الحكاية بوصفها "مصدرًا مرجعيًا

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2018.

* قسم اللغات والترجمة، كلية الآداب والعلوم، جامعة ظفار، سلطنة عمان.

لتشكيل الهوية وبناء النسق وتغذيته بالمادة الضرورية لبقائه ومفعوليته"[3]. وإن كانت السير الشعبية لا تمثل مادة حكائية متداولة بعد شيوع وسائط الإعلام الحديثة، إلا أنها ما زالت تعبر عن مرتكزات الثقافة العربية. ولا بد من التنبيه في هذا السياق إلى أن هذه الدراسة لا تسعى إلى تناول الثقافة الشعبية بمظاهرها السائدة زمن الدراسة بقدر ما تسعى إلى الكشف عن الهوية القومية كما برزت في السيرة الشعبية نفسها.

يرى الأنثروبولوجيون أن "الهويات الثقافية عبارة عن (حقل من العلاقات البنيوية) مما هو ثمرة للصراعات"[4]، والناظر في السير الشعبية العربية سيجد أنها في مجموعها تتخذ من الحرب محورًا لجريان الأحداث، وهذا ما يجعل من السيرة الشعبية مجالاً خصبًا لإبراز الهوية القومية ومفرداتها التي تمثل الخصائص الثقافية المميزة لأبطال السيرة، فغالبًا ما تتخذ السيرة من صراع الأمة العربية مع الأمم الأخرى مادة لها.

ولم تخرج سيرة حمزة العرب عن هذا السياق المتعلق بالصراع مع الآخر، غير أن السيرة هنا تستمد خصوصيتها في إبراز الهوية العربية من كونها تعبيرًا واضحًا عن مواجهة الشعوبية التي كانت سائدة بين العرب والفرس بعد دخول الفرس في الإسلام، وهذا ما سيجعل السيرة تبتعد أكثر في مفردات الهوية القومية، فهي وإن كانت قد تعاملت مع الدولة الفارسية قبل الإسلام، إلا أنها تعاملت من منظور الشعوبية، أي أن رؤية السيرة توجهت إلى الفرس بوصفهم مسلمين، وهذا ما جعل حبكة السيرة تقوم بالأساس على فكرة المصاهرة بين أمير العرب وملك الفرس، فقد جاءت الصياغة الشعبية لهذه السيرة بعد أن دخل الفرس في الإسلام.

ملخص للسيرة

تبدأ أحداث سيرة حمزة العرب من حلم كسرى الذي لم يفسره وزيره بزرجمهر بصورة كاملة، فاكتفى بأن أخبره بأن فارسًا من بلاد الحجاز سينقذ ملكه من فارس آخر يحتل كرسيه ويطرده من المدائن، ولم يخبره بأن هذا الفارس الحجازي سيتحول إلى مواجهة الدولة الكسروية فتكون نهايتها على يديه.

وهذا ما دعا كسرى إلى العناية بحمزة العرب الذي تنبأ وزيره بزرجمهر بهويته منذ ولادته، فأصبح حمزة من رجال كسرى، غير انه بعد أن أعاد لكسرى ملكه الذي أزاحه عنه خارتين، وقع في حب ابنته مهردكار التي بادرت بإظهار مشاعر الحب له.

لم يبد كسرى اعتراضًا على زواج حمزة بمهردكار، غير أن وزيره بختك أثناه عن قراره، ووضع عراقيل عديدة حاول من خلالها التخلص منه، ومنعه من الزواج بها، فتحداه في مقاتلة أسد مفترس فتغلب حمزة عليه وقتله، وتحداه في قدرته على ترويض جواد الأصفران فركبه حمزة

دون أن يبدي الجواد أي مقاومة، وحاول بختك أن يتخلص من حمزة بإرساله إلى فرسان أشداء، مثل "معتل البهلوان" و"اندهون بن سعدون" صاحب "سرنديب" وغيرهما من الفرسان فضمهم حمزة تحت لوائه، بعد أن قادهم إلى كسرى ولم يسمح له بقتل أي منهم، فما كان من بختك إلا أن بعثه ليجبي خراج دولة الفرس حتى يتم زواجه بمهردكار بحجة أن كسرى يريد أن يقيم عرسًا كبيرًا لا تكفي خزينة الدولة لإقامته.

لم تكن مهمة جمع الخراج للدولة الكسروية سهلة، فقد أراد بختك بذلك أن يتخلص من حمزة ومن العرب، غير أن حمزة الذي تأكد من نية بختك بدأ بجمع الخراج لثلاث سنوات قادمة على نية احتجاز مال الخراج فيما لو امتنع كسرى عن تزويجه بمهردكار. واستطاع أن يتغلب على الملوك الذين جمع الخراج منهم، فانضم معظمهم تحت لوائه بعد قتالهم أو دون قتال، مما دفع كسرى إلى مبادأة حمزة بالحرب إذ رأى أن حمزة يبسط سيطرته على الدول الواقعة تحت نفوذه، وهذا ما قاد إلى حروب عديدة أدت إلى هدم المدائن، وبسط سيطرة حمزة على مناطق عديدة من العالم.

مفردات الهوية القومية العربية في سيرة حمزة العرب:

يقصد الباحث بمفردات الهوية القومية تلك السمات والخصائص التي تتوافر على الأغلب في الشخصية التي تنتمي إلى القومية العربية وفق سيرة حمزة العرب، وهو ما يعرف بالشخصية القومية أو الشخصية الأساسية التي تدل "على أكثر أنماط الشخصية شيوعًا في مجتمعٍ معين أو ثقافة معينة"[5]، ومن الضرورة بمكان الإشارة إلى ترابط هذه المفردات فيما بينها ترابطًا عضويًا، فهي في مجموعها تعود إلى طبيعة الحياة الجماعية في الأغلب. ولا بد من الإشارة إلى أن الباحث سوف يعتمد في التوصل إلى هذه المفردات على شخصية البطل حمزة بالدرجة الأولى بحكم كونه يمثل الشخصية النموذجية التي تحققت فيها مواصفات القيادة في إطار ثقافة معينة.

وترتبط مفردات الهوية القومية بصورة عامة بمنظومة القيم التي تحتكم إليها الشخصيات، إذ يمكن من خلال هذه المنظومة تحقيق العيش المشترك، وبما أن مفردات هذه المنظومة مترابطة إلى حد بعيد، فإننا سنجد العناوين التي يحاول الباحث من خلالها تناول مفردات الهوية القومية العربية متداخلة أحيانًا، غير أن مقتضيات البحث تقتضي التقسيم:

1. الشخصية العاطفية الانفعالية:

يعني الباحث بهذه السمة ضعف قدرة الشخصية على تحقيق تماسكها عند تعرضها لموقف صعب، ولا سيما إذا كان يتعلق بالفقد. وقد برزت هذه السمة لدى حمزة العرب بصورة مفرطة بعد أن طرد "مهردكار" إثر مقتل ابنهما "قباط" وحلف بأن تعود إلى أهلها، فبعد تركها إياه لم

يعد لديه رغبة في محاربة الفرس، فسلم لهم العلم "بيكار الأشتهار" وتركته الجيوش والفرسان الذين انضووا تحت رايته أثناء مسيرته، وبعد أن عرف بمقتل "مهردكار" على يد فرسان بختك[6] وزير كسرى بقي شهورًا يبكي أمام قبرها مما أفسح المجال لبختك لينتقم منه، فبعث إليه العيار "قرقدان" الذي تمكن من أسره وإحضاره إلى المدائن حيث انتقم منه وصلبه، ولم ينج حمزة من الموت إلا بعد أن جمع "عمر العيار" الفرسان من جديد وأقاموا حربًا مع الفرس تمكن فيها "بديع الزمان" من إنقاذ أبيه[7].

لقد جاء موقف حمزة هذا الذي جعله يقع في أيدي أعدائه بعد إظهار مهردكار عتبها أمامه بعد مقتل ابنها، الذي نصب ملكًا لدولة العرب، وكان من الطبيعي أن تؤنب مهردكار زوجها، غير أن حمزة اتخذ موقفًا حازمًا لا عودة فيه. ويبدو أن حمزة لم يستطع تجاوز الكلام الذي صدر منه في لحظة الانفعال: "شعر بالرغم عن قساوته بعظم عمله وظلمه لها فأكمد قلبه وزهد في الحياة وكره الدنيا ومال قلبه إلى مسالمة كسرى"[8].

صوّر الراوي شخصية حمزة بوعي خالص لسمة الانفعالية والعاطفية حتى أنه أشار بصورة مباشرة إلى ذلك في أكثر من موضع: "كان الأمير حمزة كثير الحمق سريع الغضب"[9]. ولعل هذا النقد المباشر من الراوي ما سيجعل السيرة تميل نحو إبراز شخصية أخرى تتفوق نسبيًا على حمزة، وهو ما سيتناوله الباحث تحت عنوان: "تجديد الهوية القومية".

لقد قربت سمة العاطفية والانفعالية شخصية البطل من الفطرة الإنسانية البعيدة عن التعقيد، فهي أقرب ما تكون إلى الطفولية، غير أن شخصية البطل هنا ترتبط بالموقف الانفعالي فيترتب عليه السلوك، أي أن الكلمة التي تصدر في لحظة الانفعال لا يمكن الرجوع عنها، وإن كانت توقع الشخصية في مآزق عديدة. ولعل الارتباط بالكلمة نابع من طبيعة الثقافة الشفاهية، إذ يتحول الكلام إلى وثيقة يلتزم القائل بها.

2. التسامح:

عرفت الثقافة العربية الإسلامية بالتسامح مع الأمم الأخرى، وقد تبدّت هذه السمة في السيرة الشعبية بوضوح، فقد صفح حمزة عن كسرى بعد أن تم له الانتصار وثبته في حكم بلاد الفرس في مقابل ذلك الحقد الذي أبداه بتأثير من "بختك"، إذ صلبه حتى شارف على الموت. ولعل في موقف حمزة من "زوبين الغدار" ما يبين سمة التسامح بوضوح، فقد حاول "زوبين" قتل حمزة مرتين وشارف على الموت، غير أن "زوبين" و"أفلنطوش" عندما هزما في معركة أمام العرب قررا التآمر عليهم فأظهرا أنهما دخلا في دين الله وقبلهما حمزة في معسكره، بعد أن سمّى "زوبين" اسمًا جديدًا هو "عبد الله زوبين"[10].

لقد استنكر رفاق حمزة هذا السلوك منه: "ولما سمع الفرسان كلام الأمير وعفوه عن زوبين دار بينهم وتقمقموا من عمله وما هان عليهم بقاء زوبين حيًا... تعجب الجميع من صفاء باطن الأمير وحلمه وحسن طويته وعدله وحبه لله واعتقاده واعتباره لإرادته"[11].

اغتنم "زوبين الغدار" و"أفلنطوش" فرصة غياب حمزة وانقضّا على معسكر العرب بمن معهم من جنود ليلا، وسبيا الفارسيات من نساء العرب "مهردكار" و"طوربان" وأبناءهما محضرين إياهم إلى المدائن، وقد حُكِم عليهم بالقتل هناك، وكاد أن ينفذ الحكم لولا الحيلة التي تمكن فيها "عمر العيار" من إنقاذهم.

لم تكن هذه السمة في شخصية حمزة خافية على أعدائه، فهم يعلمون طباعه ويعرفون كيف يستغلونها، وهذا ما دعا "زوبين" إلى إقناع "أفلنطوش" بالذهاب إلى حمزة ليحتال عليه: "ومن العجيب أن حمزة الذي يحسب في هذه الأيام من أعظم العالم بسالة وإقدامًا وأشدهم مجدًا وفخرًا بسيط القلب يصدق كل ما يسمع ولا يظن الشرّ بأحد وهذا يساعدنا على نوال المراد، وأرى من الضرورة ان تكون أنت معي بينهم فيسهل علينا كل ما نريد ونوقع بهم ونقتل الأمراء والأكابر"[12].

والناظر إلى سيرة حمزة العرب لن يبالغ إذا قال إن السيرة هي قصة تسامح، بحيث يتحول هذا التسامح إلى إشكالية، لا سيما أنه يأتي في غير مكانه أحيانًا، فإن كان يؤدي إلى انضواء فرسان جدد تحت لواء جيش العرب، إذ يعفو حمزة عن مقاتليه، إلا أن ذلك يؤدي إلى إطالة القتال مع العدو الذي لا يقدّر تسامح الجهة المقابلة، فيحاول استغلال هذه السمة لصالحه.

3. قيم الإقدام:

يقصد الباحث بهذا العنوان تلك القيم التي تحفز الشخصية للإقدام على القيام بأفعال دالة عليها، أي أن القيمة تبدو هنا بوصفها منالاً، فمجرد الاتسام بها يعني أن الشخصية تمثل شخصية نموذجية للقيادة في إطار ثقافة معينة، ولعل في تلك التحديات التي وضعها "بختك" أمام حمزة في محاولة منه للتخلص من حمزة أو ثنيه عن طلب مهردكار للزواج ما يعبر عن هذه القيم بوضوح.

تمثل أول تحدّ وضعه "بختك" أمام حمزة في مواجهة الأسد، وقد تمكن حمزة من صرعه أمام إيوان كسرى في إشارة إلى شجاعته وقوته[13]، ويبدو الأسد هنا أيقونة تشير إلى القوة والافتراس، ومواجهة حمزة له لا تخفي خلفها أي تردّد في القيام بهذا الفعل، بل تشير إلى قيمة بحد ذاتها، فهو شجاع إلى درجة أنه يصرع الحيوانات المفترسة.

وإذا كانت قيمة الشجاعة مطلقة في تعبيرها عن الإقدام، فإن قيمة الفروسية تتطلب قدرًا من الاحتراز، وقد عبرت حيلة "بختك" الثانية عن تحقق سمة الفروسية في حمزة، فقد تحدى بختك حمزة في أن يروض جوادًا لم يستطع أحد من الفرسان ترويضه، لكن حمزة استطاع أن يروضه دون جهدٍ يذكر: "أخذ اللجام وأدخله في فمه دون أن يبدي منه أقل حركة أو ممانعة كأنه عرف أن هذا الفارس هو فارسه الذي يستحق أن يركبه"[14].

يعبر قبول الحصان لحمزة عن تمثله لسمات الفروسية التي تتضمن الشجاعة والقوة والتمكن من فنون القتال، لكنها في الوقت نفسه تفرض أخلاقًا معينة قد تقود إلى الإحجام عن بعض الأفعال، فالأمير سعد اليوناني الذي طاوع أمه طوربان في الذهاب لقتال هارون البطل المجنون خارجًا عن طوع حمزة استفز هارونًا من خلال ذبح إحدى خراف قطيعه وقتل رعاة القطيع، وعندما عرف هارون بفعله قاتله وجرحه في حين استسلمت طوربان، أما حمزة فلم يقدم على قتل الرعاة واكتفى بذبح خروف، وحين تقاتل مع هارون لم يهزم[15].

إن سلوك حمزة وإن كان يعبر عن إقدامه وشجاعته فإنه أيضًا يعبر عن إحساس بالمسؤولية قاده إلى عدم التهور كما هو الحال لدى سعد اليوناني، وهذا هو معنى الفروسية، فالإقدام والشجاعة يرتبطان بحس المسؤولية الناجمة عن اختزان أكبر قدر من قيم الإحجام التي سيتناولها الباحث في البند اللاحق.

تبدو قيم الشجاعة والفروسية الزاد الأساسي الذي يمكن أن يتزود به القائد لتحقيق المبتغى الذي يسعى إليه، وهذا ما تمثلت به باقي المهمات التي وضعت أمام حمزة العرب ورفاقه الفرسان، لكن هناك قيمة جوهرية تعبر عن ذلك الملمح الانفعالي العاطفي تحت حمزة دائمًا على خوض المعارك والحروب، وهي قيمة الحمية والنخوة العربية.

النخوة قيمة تتعلق بالإقدام دومًا، وهي حافز أساسي تتحقق من خلاله كثير من أحداث السيرة، وغالبًا ما تكون عند استنجاد طرف يحتاج إلى المساعدة بطرف آخر قوي. وقد توفرت هذه السمة في حمزة العرب وأبنائه بوضوح: "فلما سمع الأمير حمزة هذا الكلام اشتد به الغيظ والحنق ولعبت برأسه النخوة العربية، فقال وحق البيت والصفا لا بد لي من المسير إلى الخيبري وذبحه ذبح الأغنام وتشتيت عساكره ولو كانوا بعدد الرمال"[16].

لقد كانت النخوة المحفز الأساسي الذي دفع حمزة إلى إقامة علاقته بكسرى الذي استنجد به، فكان طرده لخارتين نابعًا من هذه السمة. وإن كانت نخوة حمزة قد حركته لنجدة كسرى، فإن حمية أبنائه الذين ابتعد عنهم لظروف تتعلق بترحاله الدائم، دفعتهم للالتحاق به بمجرد اشتداد عودهم ومعرفتهم بأن حمزة أبوهم: "فلما سمع بديع الزمان بما أبداه الصياد شعر أن مرارته قد

انفطرت وصاح من ملء رأسه هل أنا مقيم بين أعدائي... ثم ذرف الدموع من عينيه وتحرك في أحشائه الدم العربي والحب الوالدي"[17].

تبدو رابطة الدم هنا حافزًا أساسيًا يقود للإقدام على الفعل، فبديع الزمان الذي تربى عند أعداء أبيه تنكر لكل ماضيه بمجرد أن عرف أصله العربي وارتباطه بحمزة العرب، فأقدم على إنقاذ أبيه من المصلب الذي وضع لقتله.

4. قيم الإحجام:

حين عزم حمزة أمره على جمع خراج دولة الفرس حاولت "مهردكار" أن تثنيه عن هذا الفعل، وطلبت منه أن تهرب معه من أبيها دون علمه، فقال حمزة: "لا أقدر على الرجوع عن وعد صدر مني، ألا تعلمين أن العرب رجال وفاء وصدق وأمانة يخاطرون بالنفوس والنفائس من أجل حماية جار أو ثبات وعد أو إنفاذ كلمة، فكيف أكون الأمير حمزة وأرجع عن كلامي"[18].

إن الإحجام المقصود هنا هو إحجام عن رغبة، كما أن الإقدام المقصود في البند السابق إقدام على فعل قد لا يتنافى مع الرغبات، وقد يقود صاحبه إلى الهلاك، وفي هذه الفقرة المقتبسة نجد أن حمزة يلتزم بجمع الضريبة لكسرى، ويحجم عن الزواج بمهردكار منطلقًا في ذلك من القيم التي يلتزم بها.

وعلى الرغم من تحلي عمر العيار بهذه السمات إلا أن منظومة القيم تبدو رخوة لديه، فالحيلة هي أساس تعامله مع الأعداء على خلاف الفرسان الذين لا يلجؤون إلى الحيلة، وهذا ما هيّأ عمر لأن يكون حامي العرب، وجعلهم يفدونه بأرواحهم، غير أن في ذلك إشارات عميقة، فأخلاق الفرسان القادة تختلف عن أخلاق العيارين من العبيد، وقد كان من الممكن أن يتمتع حمزة بسمات عمر العيار، إذ سيزيد ذلك من قدراته ودوره في حماية قومه، لكنّ ذلك سيؤثر على صورة القائد الفارس، أي أنه سيخل بالقيم التي يلتزم بها حمزة، كما أن في ذلك معاني رمزية تصب في الإخلال بهذه القيم، فلو أخذنا مثلاً قدرة عمر العيار على تغيير شكله وانتحاله أي شخصية أخرى من خلال المكحلة، لوجدنا أن هذه القدرة فيما لو اختصت بحمزة لأفقدته تلك الثبوتية في شخصيته، ولو من الناحية الرمزية على الأقل.

تسهم قيم الإقدام بصورة كبيرة في رسم ملامح الشخصية القومية، فهي تبين التضاريس الثقافية التي تستند إليها الهوية، وهذا ما سيجعلها متمثلة بصورة أكبر في النماذج العليا القيادية القادرة على امتلاك الجماعة والتأثير فيها، حيث يمكن أن يتراخى الالتزام بهذه القيم كلما قلت المنزلة الاجتماعية، بل إن تحقيق المنزلة الاجتماعية يتحقق من خلال الالتزام بهذه القيم.

لقد تدنت منزلة الأمير قاسم بين العرب على الرغم من كونه حفيد حمزة من ابنه "رستم" صاحب الشأن لديه، فقد حاول قتل بديع الزمان مرات عديدة، وحاول التخلص من ابنه الذي أحب ابنته، إذ طلب مهرًا صعب المنال لابنته، وعندما أعطاه حمزة المهر الذي طلبه استلمه "ضائع الفكر ساهم الطرف باهت اللون.. لا يعي لشدة مقته وكرهه لبديع الزمان الناتج عن كبريائه"[19]. فعبر الراوي عن الإشكالية التي أدت إلى انحطاط قدر قاسم: "وأعوذ من شيطان هذه العادة المخلّة فإنها إذا تمكنت بالقلوب لا يزيلها إلا الموت ولا يقدر على قطعها تكرار الزمان، فتصير ملكة راسخة بصاحبها يرى بها الشريف دنيئًا فيحتقره... والمتواضع ذليلا فيهينه والملك عبدًا فلا يكرمه، ولا تزال غربانها جاثمة على جيفة أفكاره ومخيلته حتى تهوى به إلى الحضيض، وترسله إلى وديان الظلمات فيحتقره الخاص والعام، ويمقته وينكره ذووه وأصحابه إلى أن يموت ممقوتًا من الأقارب مكروهًا من الأصحاب مذمومًا ومرذولًا من العالم"[20].

لقد عبر الراوي عن اختلال موازين القيم لدى الأمير قاسم فما يستحق الإقدام يحجم عنه، مما جعل مكانته حقيرة بين الخاص والعام، وعلى الرغم من هذا التدني في مستوى التزام الأمير قاسم بالقيم إلا أننا نجد قدرًا كبيرًا من التهاون معه في أفعاله، فعلى الرغم من اعتداءاته العديدة على بديع الزمان لم يتخذ حمزة العرب إجراء واضحًا بحقه، بل ترك بديع الزمان يغادر معسكر العرب بعد إقدام قاسم على قتله ودفاع بديع الزمان عن نفسه، إذ دافع حمزة عن قاسم: فتكدر الأمير من كلام بديع لما علم أنه يقول الجد، وقال له إن قاسمًا مثلك عندي وأشفق عليه أكثر منك وأرغب فيه إكرامًا لأبيه، فإذا أردت أن تبقى بيننا فأهلاً وسهلاً بك، وإلا فارحل"[21].

تتحول رابطة الدم من حافز إقدام كما مرّ في البند السابق إلى حافز إحجام، وهو إحجام عن تحقيق تكامل المنظومة القيمية، إذ تفسح المجال للاعتداء بغير حق من قبل شخصية لا تلتزم بالمنظومة على شخصية أخرى ملتزمة بهذه المنظومة كما هو الحال لدى بديع الزمان، ولعل في فخر قاسم الدائم بنسبه ومحاولته تجريد بديع الزمان من هذا النسب، حيث كان يعايره بأنه صياد، جعل حمزة يزيد من تغاضيه عن أخطائه، ولعل في تحول النسل إلى قيمة محضة تحتل قدرًا من القداسة ما يخل بقدر تماسك المنظومة في داخلها، وإن كان في تهميش أمثال الأمير قاسم ما يحقق قدرًا من الصيانة لها.

5. الفرد والجماعة:

لا تنفصل سيرة حمزة العرب عن السير الأخرى، إذ نجد من الصعوبة بمكان فصل الفردي عن الجماعي[22]. وإن بدا للوهلة الأولى أن الفرسان الذين انضموا تحت لواء حمزة يحاربون لأجل غايته المتمثلة بالزواج بمهردكار، إلا أن هذه الغاية بذاتها لم تعد تعبر عن رغبات حمزة خاصة بعد رفض كسرى مصاهرته، بل صارت هذه المواجهة تشير إلى موقف الأعجام من العرب.

لقد حافظ حمزة على مركزيته كفرد في المجتمع الذي أسسه منذ أن بدأ بالانضواء تحت لوائه عدد من الفرسان والقادة، حتى إن تنازل حمزة عن الهدف الذي بدأ لأجله محاربة كسرى جعل هؤلاء الفرسان ينفضون من حوله بسرعة، فلم يعودوا له إلا بعد أن عرفوا بالضيق الذي وقع فيه، فجاؤوا لنجدته.

لا يستطيع القارئ للسيرة الشعبية تجاوز أهمية الفرد البطل فيها، لكن ما ينبغي عدم تجاوزه بإزاء ذلك في هذا السياق هو أهمية الفرد بوصفه معنى، ما يجعل الكفاح الذي تخوضه الجماعة من أجل الفرد كفاحًا من أجل القيم التي يتمثلها، فهو كفاح من أجل قيم التسامح والاعتراف بمكانته أمام العجم، وهي مكانة لا تنفصل عن مكانة الجماعة كلها ومنظومتهم القيمية.

تلتئم الجماعة حول حمزة من خلال مفردة من أهم مفردات الهوية القومية، وهي التسامح، فخوض حمزة مبارزة أو معركة مع فارس أو جيش لا يقوده إلى قتل الفارس أو القضاء على الجيش بل ينتهي إلى العفو عنه، كما حصل مع المعتدي حامي السواحل مثلاً، فبعد أن تغلب عليه حمزة ولم يقتله منحه الحرية: "وقد اشتد حيله عندما رأى علائم الفوز فقبض على طوق خصمه وانتشله عن جواده فدافع عن نفسه بكل قواه فوقع الاثنان إلى الأرض وكان المعتدي من تحت الأمير، فأصاب جسمه الأرض ورض وصاح الأمان يا سيد فرسان هذا الزمان، فإني دخيل عليك ووقيع فقد هد حيلي وغاب وعيي.. فنهض عنه وقال انهض إلى جوادك فلك الحرية أن تفعل مهما أردت، قال إني أسيرك الآن ولا يحق لي أن أنقل سلاحًا وأركب جوادًا إلا بإذنك فهناك سيفي بين يديك وإني أعترف أنك سيدي ومالك أمري"[23].

لقد أصبح المعتدي عتيق سيف حمزة، كما هو الحال مع عدد من الفرسان الذين رافقوه، وهذا العتق هو الذي جعل هؤلاء يمشون في ركابه تاركين وراءهم أقوامهم، مكرسين بذلك قول المتنبي الذي يمتح من الثقافة نفسها: "إذا أنت أكرمت الكريم ملكته".

ومن الظاهر في السيرة الشعبية عمومًا أن الناس العاديين لا ذكر لهم إلا في معامع القتال، ولا يتقدم منهم أحد لمسرح الحدث بصورة فاعلة، على أن ذلك لا يلغي أن لهؤلاء دورًا بالغ الأهمية في سير أخرى، فما سيرة عنترة إلا ثورة ضد العبودية.

غير أن ما يلفت الانتباه في سيرة حمزة أن لا أحد من هؤلاء الفرسان الذين ينضمون إليه يقتل في معركة، فجميعهم لا يتعرضون لخطر يفوق الأسر، وينتهي الأمر بهم إلى النجاة على يد عمر العيار أو حمزة الذي يتغلب على المقاتل الذي أسرهم، هذا على عكس أبناء حمزة الذين قتل عدد منهم أمام الأعداء كرستم وسعد اليوناني وقباط ابن مهردكار.

يساعد عدم التضحية بأي من هؤلاء الفرسان على حصانة البطل الذي لا تؤدي مصاحبته إلى التهلكة، فبقاؤهم أحياء يعني أنهم لم يخسروا بانضمامهم إليه، في حين سوغت رابطة الدم

تضحية أبناء حمزة بأرواحهم من أجل تحقيق أهداف السيرة، كما أن استمرار إنقاذ حمزة أو عمر لهؤلاء يعني استمرار مفهوم العتق بما يؤهل حمزة للرئاسة على مدى مدة الصحبة.

6. الميل إلى الفطرة:

تتصل هذه المفردة من مفردات الهوية القومية بالمفردة الأولى المتعلقة بالشخصية العاطفية الانفعالية، غير أن الباحث في هذا العنوان أراد أن يتناول ملمحًا أكثر تعلقًا بالنشاط الحضاري متمثلا بالإنتاج، فالحضارة في أحد أهم وجوهها تتمثل بطبيعة إنتاجها، وهذا الإنتاج بلا شك يسهم في تشكيل الثقافة التي ترسم ملامح الهوية.

أبدى حمزة ومعظم الفرسان الذين رافقوه عجزًا شبه كامل أمام الآلة، فقد استطاع "تركي طاووس"، أحد الفرسان الذين استعان بهم "بختك" ضد حمزة، قتل اثنين من أبناء حمزة الفرسان، إذ استعان بأداة بسيطة في مبارزتهم إضافة إلى السيف والرمح، وهي نابض مثبت على الركاب، إذا داس عليه الراكب انطلق منه سهم مصوّب لصدر المقاتل فيقتله. وقد تمكن "تركي طاووس" من قتل ابني حمزة بهذه الآلة إذ رأى أنه لا يقوى عليهم بالمبارزة، وكان حمزة يرغب في مقاتلته غير أن "هارون المجنون" الذي انضم أثناء هذه المواجهة إلى حمزة أثناه عن ذلك، وبرز البطل لتركي طاووس لأنه يعرف سر الآلة التي تزود بها، وتمكن من قتله.

لا شك في أن للمبارزة قواعدها وأخلاقها التي ينبغي للفارس الالتزام بها، ومن هذا المنطلق يأتي تعليق حمزة: "قبحه الله من خادع محتال، أهكذا تكون الفرسان فإذا لم يفز الفارس بقوة بأسه وذراعه لا خير فيه ولا في قتاله فهو نذل جبان"[24]. وإن كان دور حمزة يؤمن بمواصفات معينة للفارس في المبارزة، إلا أنه يرفض دور الآلة في القتال ويعدها جبنًا، غير أن اللافت في هذه المواجهة مع "تركي طاووس" أن العرب لم يستطيعوا اكتشاف خدعته القائمة على الآلة، ولم يتصدّ لها إلا هارون الذي انضم لحمزة حديثًا، إذ امتلك الآلة المضادة المتمثلة "بدرع من الذهب مطلسم لا تنفذ فيه هذه السهام"[25].

لا تواجه الآلة في هذا السياق إلا بآلة مثلها، وإن كانت تتخذ صفة غيبية تتمثل بالطلسمة التي تأتي من الطابع العام للسيرة المشبع بالإشارات الغيبية، غير أن التحديات المتعلقة بالقتال التي تواجه فرسان العرب تكون غالبًا غيبية في أصل تكوينها، وهي تحديات يتمكن الفرسان من مواجهتها بمعرفة غيبية تأتي من خلال مساعدة إحدى الشخصيات المباركة كالخضر عليه السلام أو قوى الجن. فقد تمكن العرب من مواجهة "مارد الخوند" من خلال "أسما بري" ملكة الجن وزوجة حمزة التي جمدت قدرات المارد، كما تمكن بديع الزمان من التغلب على بهران ابن أبي الزنجير بعد أن لاقاه الخضر عليه السلام وأخبره بسر الحماية التي حمى بها جسده[26].

لم تأت المعرفة لأبطال السيرة من خلال جهاد صوفي، بل كانت من خلال العناية الإلهية، وهذا ما يظهر على الأغلب في الحكايات الشعبية لدى الشعوب المختلفة، غير أن ما يلفت الانتباه هنا هو تهميش الدور الإنساني في الإنتاج، إذ لم يتبدّ ذلك فقط في مواجهة "تركي طاووس" بل ظهر في أغرب رمزية اتخذها حمزة لجيشه؛ وقد تمثلت في علم "بيكار الأشتهار" الذي كان يتخذه الفرس إشارة لهم في الحروب التي يخوضونها.

أبدى حمزة حرصًا شديدًا على الاستحواذ على علم بيكار الأشتهار: "سأحرم كسرى من بيكار الأشتهار وأقيمه بين العرب لأنه يساوي العالم"[27]. واستطاع حمزة أن يحصل على العلم بعد قتال مع الفرس، فاتخذه لجيشه بعد أن بعثت له "أسمابري" من عالم الجن صيوان أبيها "إليون شاه" الذي كان له "سبعة أبواب من الحرير المقصب بالزخارف الذهبية، وفيه تسعون كرسيًا من الكراسي الذهبية التي لا يوجد عند بني الإنس مثلها"[28]. وإن كان صيوان "إليون شاه" كغيره من الذخائر التي حصل عليها حمزة وبديع الزمان وعمر العيار جاءت من خلال مساعدة من العالم الغيبي فإن "بيكار الأشتهار" جاء من عالم الإنس.

تكمن أهمية ذكر "إليون شاه" في هذا السياق في كونه مع "بيكار الأشتهار" يمثل عامل جمع للناس في إطار موحد، فهما مظهران من مظاهر الملك التي سيتناولها الباحث في جزء آخر من هذا البحث: "وانضموا جميعًا إلى علم بيكار الأشتهار ورفع فوق رؤوسهم ونقلوا عن تلك الأرض ومشوا في طريق مصر كل سيد على قبيلته يتأثرون ذاك العلم الكبير"[29].

من المعروف أن رمزية أي علم تتخذ في الأصل للدلالة على جماعة معينة، فالراية لدى أي جيش من الجيوش علامة للدلالة عليه، كما هو الحال في أعلام الدول الحديثة، وسلب الراية مهما كانت قيمتها المادية من جيش لا تساوي بالنسبة للجيش المقابل إلا نجاحًا معنويًا في هزيمة الجيش الذي سلبت منه الراية، فلا يتخذ الجيش المنتصر هذه الراية علامة له، بل يرفع الراية الخاصة به إشارة إلى نصره.

لقد تحقق جانب من هزيمة الفرس بسلب "بيكار الأشتهار"، لكن النصر لم يتحقق لحمزة بالمعنى الرمزي، فقد ارتفعت راية الفرس لتجمع العرب، وفي ذلك ما يشير في وجه من وجوه دلالته إلى إشكال في عملية الإنتاج في التفكير الشعبي إذ لم يفكر حمزة في صناعة علم يطاول "بيكار الأشتهار" ويفوقه جمالاً وظهورًا، فأغار على علم الفرس واستحوذ عليه.

7. الدين والامتداد القومي:

يعد الدين أحد المكونات الأساسية في السيرة الشعبية، غير أنه لا يظهر وفق التصور الرسمي للدين، وإن كان يأخذ بعض ملامحه منه، وهو يتفاوت في طبيعته وقوة بروزه من سيرة

إلى أخرى، فهو في السيرة الهلالية يبدو أكثر ظهورًا من السيرة موضوع الدراسة[30]، حيث لا يظهر الدين بوصفه مبتغى السيرة وسبب كفاح حمزة منذ البداية: " لا أريد من كسرى إلا أن يعترف بفضل العرب وبسالتهم لأني لا أحتاج إلى التفاتة، ما زلت قادرًا على أن أنشئ لنفسي وأقيم لي في صدر هذا الزمان مركزًا حسنًا، فإذا لم يعترف كسرى بفضل العرب ألزمته إلى ذلك بقوة سيفي الأحدب وشدة بأسي"[31].

ولم يقتصر ظهور الملمح القومي في "حمزة العرب" على كونه حافزًا للكفاح، بل تمثل سلوكًا وشرائع يتبعها البطل في سيرته: "تقدم حمزة فقبل يدي أبيه وبكى على فراقه وأوصاه أيضًا بالالتفات إلى نفسه وإلى الشرف العربي ومراعاته وقيام ناموس الطوائف العربية"[32]، وقد برز هذا الناموس من خلال القيم التي حاول الباحث التوصل إليها.

يبرز المنحى القومي بوضوح في بداية السيرة ويمتد حتى لا يعود جيش حمزة ممثلاً للجزيرة العربية حسب، إذ يحدث أن "يكون الأبطال الجانبيّون الذين يعاونون البطل ممثلين للأقاليم المختلفة التي يشملها المعنى القومي، ويرمزون بهذا إلى توحد هذه الأقاليم في مواجهة التحديات الداخلية والخارجية معًا. والتي تهدد وجودهم القومي، كما يرمزون بهذا إلى التطلع الدائم نحو الوحدة القومية كهدف ماثل ودائم وقائم بذاته"[33]، ومن هنا نجد أن الأبطال الذين انضموا إلى حمزة كانوا يمثلون مناطق تنتمي إلى القومية العربية، وكانوا على درجة عالية من الشجاعة والفروسية حتى إن بعضهم تفوق على حمزة كما هو حال المعتدي حامي السواحل فارس صيدا: "قال حمزة... إني أعرف أكيدًا أنك أبسل مني وأشجع وقد لاقيت منك ما أعجزني ولولا القليل لكنت وقعت بيدك فالحق يقال أنك نادر المثال"[34].

لن يجد القارئ تمثيلاً حرفيًا لانتماء الأقاليم التي ورد ذكرها في السيرة إلى القومية العربية من خلال سلوك حمزة وجيشه وفرسان هذه الأقاليم، فقد حافظ الراوي الشعبي على قدر من التنويع السردي الذي يخرج السامع من الملل، فنجد بعض الأقاليم تنضم لحمزة دون قتال وتدفع له الضريبة، ونجد بعضها يقاتل دون أن تحصل خسارة كبيرة في الأرواح، ونجد بعضها الآخر يؤمن أهلها بالله وأخرى لا تؤمن به، غير أنها في الأغلب ينضم فرسانها لحمزة، كما هو الحال في حلب وطرابلس وصيدا وعكا.

لا يبدو الدين غاية الكفاح بادئ الأمر في "حمزة العرب"، غير أن القارئ سيجد تعاطفًا من حمزة مع الأقاليم التي يعبد أهلها الله دون أن يمنعه هذا التعاطف من طلب الضرائب التي يجمعها لدولة كسرى[35]، بل إنه يشترط للعفو عن الذين يحاربهم الخروج من عبادة الأوثان إلى عبادة الله[36]. ولا يصل حمزة إلى بلاد الخوند حتى يتحول إلى فعل دعويٍ يدعو من خلاله إلى دين الله، فنجد قصصًا مستلهمة من الآيات الكريمة التي تتحدى الكفار بقدرة آلهتهم على الخلق، فبعد أن

قطع بديع الزمان أنف "أسطاين" الذي بعثه "الخوند" لقتل العرب سخر منه بديع الزمان وتحداه في أن يخلق "الخوند" له أنفًا، وبعد أن عجز "الخوند" عن ذلك عاد "أسطاين" إلى العرب مؤمنًا بالله تعالى[37]وقد تولّى "بزرجمهر" إصلاح أنفه.

لقد جاء توجه حمزة إلى بلاد "الخوند" في إطار الغاية التي كان يسعى لها أصلاً، وهي ملاحقة كسرى و"بختيار ابن بختك" الذي تمكن العرب من قتله، وهذا ما لم يمنع من التوجه الدعوي الذي ظهر خلال السيرة، فالدين يظهر بوصفه مكونًا أساسيًا من مكونات الهوية القومية في "حمزة العرب"، وهو لا يظهر فقط بوصفه مسعى من مساعي الأمير حمزة، بل يظهر بصورته القدرية خلال السيرة كلها، فأحلام "بزرجمهر" وزير الفرس المؤمن بالله تعالى تمثل النبوءات التي يسير وفقها خط الأحداث إلى آخر السيرة، وكلما تقدم القارئ أكثر وجد أن هذا الملمح يظهر بصورة أكبر في تفاصيل الأحداث، كما تتعدد أدواته، فلا نجد ضرب الرمل إلا في الجزء الرابع من السيرة عندما دخل العرب بلاد الخوند، بل إن برزجمهر الذي كان يتنبأ في بداية السيرة من خلال الأحلام صار في هذا الجزء يضرب الرمل[38]. ولعل ذلك مما يعود إلى طبيعة المكان الذي دخله العرب، فهو مكان مشحون بالخرافات والأساطير الدينية، إذ نجد الخوند يدعي الألوهية وقد بنى سماء فوق عرشه.

إن الرؤية القدرية التي ترسم خط أحداث السيرة تستمد صلبها من الدين أساسًا، وتتخذ بعض أدواتها منه، كما هو الحال في الأحلام التي أدت دورًا في التنبؤ بالمستقبل، غير أن الناظر في تفاصيل الأحداث لن يجد التزام الشخصيات بالشعائر الدينية، ونجد رستم يتزوج من قمر شاه بكلمة تدخلها في دين الله دون شهود: "وصرفوا أكثر الليل بين حرب مدام ومناشدة أشعار وتقبيل ومكاشفة أسرار إلى أن أخذت الخمر حدها. وحينئذٍ قالت له قمر شاه هلم بنا إلى المنام، فقال إنكما على دين النار ولا يمكن أن أقرب منكما إلا إذا كنتما تعبدان الواحد القهار فتكونان من نسائي ويكون لي بكما الخيار، فآمنت قمر شاه بالله العزيز الجبار فأخذها لنفسه زوجة وأتاها وسرّ منها سرورًا عظيمًا"[39].

وتبدو قصة رستم مع قمر شاه طبيعية أمام قصة بديع الزمان مع الأميرة حسن، إذ تزوج بها بعد أن صلى فرضه وهو سكران: "ثم إن بديع الزمان بعد أن تمكنت منه الخمرة وغرق في بحر من الثمول يكاد لا يصحو منه إلا بنوال المراد، قال لحسن اعلمي يا سيدة الحسان... أني ما أتيت هذا المكان إلا لأجلك... على أمل أن اتخذك لي زوجة وخليلة... ثم نهض وصلى فرضه وسأل الله التوفيق والنجاح ومن ثم دخلا حجرة المنام ليقوما بالعمل التام"[40].

لقد ظهر الدين بصورته الإيمانية من خلال الرؤية التعددية التي تحكمت بالمسار العام للأحداث ومصائر الشخصيات، والملمح الدعوي الذي لازم أبطال السيرة التي بدت من خلال

إنجاح مهامهم عن طريق الخضر عليه السلام، أو عن طريق الجن أو القدرات الخارقة التي منحت للأبطال ولا سيما عمر العيار. ولا شك في أن تجاوز الشعائر والتابوات الدينية لدى شخصيات السيرة لا ينبع من وعي تاريخي لمرحلة ما قبل الإسلام، فأحداث السيرة عادة ما تمتزج "بالواقع التاريخي الفعلي للمراحل التاريخية التي فيها... لتقدم بطلاً يعكس الواقع التاريخي للمرحلة بكل صراعاته وتطلعاته"[41].

8. البطركية:

لم تكن المنظومة القيمية التي حاول الباحث التوصل إليها شاملة لشرائح المجتمع جميعها، فهي قيم مختصة بالرجل في الأغلب، خاصة إذا كانت متعلقة بقيم الإقدام كالشجاعة والنخوة، وإذا ما وجدنا امرأة تتسم بهذه الصفات سنجد أنها غير مكتملة كما هو الحال لدى "القناصة بنت النعمان بن المنذر" و"طوربان بنت أفلنطوش"، فقد كان إقدام القناصة مقروناً بالخداع، إذ قتلت مخلوفًا الذي أحبها بعد أن أتاها اغتصابًا في ليلة زواجه بها، فتركته إلى أن نام وقتلته، وقد انتقم منها حمزة فقتلها في ديوان النعمان[42].

لقد خدعت القناصة مخلوفًا بخدعة أخرى قبل قتله مشابهة لخدعة أخرى قامت بها "حسانة بنت الأمير هندام" ملك بلاد الجزر إذ أخذت جيشًا من النساء لتواجه رستم، كما أخذت القناصة جيشًا من النساء لتواجه حمزة، وكما غلبت القناصة مخلوفًا بالمبارزة من خلال الكشف عن صدرها، فعلت ذلك حسانة مع رستم غير أن القناصة انتهت بها الحكاية الفرعية إلى القتل بينما انتهت حسانة إلى الزواج برستم وإنجاب غلام منه[43].

لقد سيطر الطابع التكراري على السيرة بكليتها كما هو الحال في طبيعة السرد الشعبي بعامة، والسرد التكراري بطبيعة الحال يؤدي إلى نهايات متشابهة، لكن الشخصية هنا ستسهم إلى حدٍ بعيد في التوصل إلى تفسير محدد، فالقناصة تنتمي إلى نسب عربي، بينما لا تنتمي حسانة إلى نسب عربي، ولا يعبر اسم بلدها عن إقليم من أقاليم العرب، وهذا ـ بحسب الباحث ـ ما قاد إلى اختلاف نهايتي الحكايتين، فقد وضع الذهن البطركيّ حدًا حاسمًا لفروسية المرأة العربية، ولم يتقبل أيّ إخلال منها بالقيم التي تقتضيها فكرة الفروسية، بينما تقبل هذا الإخلال من حسانة، كما تقبل من الرجل متمثلاً بشخصية الأمير قاسم الذي لم ينته به المطاف إلى القتل، على الرغم من كل ما ارتكبه من خطايا أو كل ما أفسد سمات الفروسية فيه.

وعلى الرغم من قبول الذهن الشعبي لفروسية المرأة الأعجمية، إلا أنها بقيت على قدر من الضعف، فطوربان بنت أفلنطوش تمتعت بقدرٍ عالٍ من الشجاعة إذ بارزت "زوبين الغدار"، ورآها حمزة "في وسط القتال وشاهد منها اشتداد ساعدها وقوة باعها وخبرتها بفن الحرب والقتال"[44]، غير أنها لم تقو على مواجهة "هارون البطل المجنون" بعد أن جرح ابنها "سعد اليوناني" إذ

"أراد أن يقاتلها فكشفت عن وجهها وقالت له: عيب عليك أن تقاتل النساء، فلما رآها أطرق إلى الأرض"[45].

لم يحاول الضمير الشعبي بصورة عامة رسم صورة جديدة للمرأة، فإذا كانت سيرة عنترة صرخة أطلقها الإنسان "ضد العبودية وسيطرة الناس بعضهم على بعض، فإن سيرة الأميرة ذات الهمة تعتبر أول صرخة فنية تنطلق من ضمير البشرية لتدافع عن حق المرأة في الحياة والمساواة، وتخلصها من استعباد الرجل لها وحجره عليها وحرمانها من حقوقها المشروعة"[46]، ومهما كان أمر هذه السيرة فإنها لن تخرج كثيرًا عن الذهن الشعبي، فذات الهمة لم يعترف بمكانتها بوصفها امرأة إلا من منطلق تحلّيها بالسمات الذكورية، إذ فرت إلى الصحراء دفاعًا عن شرفها وعاشت من قطع الطريق، ووصلت شجاعتها إلى درجة جعلتها مهيبة من الجميع. وقد برزت في هذه السيرة شخصية أخرى يمكننا أن نعتبر ذات الهمة مكملة لها، وهي شخصية سلوى أم بديع الزمان زوجة حمزة التي تركته إلى مكة بسبب تفضيله لمهردكار عليها، وأسرت هناك من "زوبين الغدار" الذي قدمها هدية لشاه زوال فقتلته وقتلت نفسها، "وكانت لعفة نفسها رأت أن الموت أسهل من تسليم نفسها إلى رجل أجنبي"[47] .

تجليات الهوية القومية:

سيتناول الباحث في هذا الجزء من البحث ظهور مفردات الهوية القومية في التعامل مع المفاهيم والمشكلات التي تعرضت لها شخصيات السيرة، سواء أكانت هذه المفاهيم والمشكلات على مستوى الاحتكاك بالأمم الأخرى أم على مستوى التنظيم الداخلي للجماعات التي انضوت تحت راية حمزة العرب، إذ لا يبدو للقارئ أي تمايز بين هذه الجماعات من ناحية العقلية التي تحتكم إليها سلوكاتها، وسوف يحاول الباحث أن يناقش هذه التجليات من خلال ثلاث نقاط أساسية هي: العلاقة مع الآخر، والملك والسلطة، والتعامل مع المرأة.

العلاقة مع الآخر:

تنطلق علاقة العرب مع الآخر في "حمزة العرب" من مفهوم محوري تأسيسي يتمثل بالمصاهرة التي تتخذ دلالة عميقة تنبع أصلاً من البعد الاجتماعي لها، إذ تقتضي أن يكون المتصاهران متكافئين في نسبيهما وفق التقاليد القبليّة العربية[48]، ويتسع مفهوم المصاهرة في دلالته ليشير إلى التقارب والاندماج بين قوميتين، حيث لا تمثل الشخصيات المتصاهرة أفرادًا عاديين في مجتمع السيرة بل يمثلون رموزًا تستوعب مفهوم الأمة.

تبرز المصاهرة بين العرب والفرس بوصفها قضية أساسية في سيرة حمزة البهلوان، إذ عبر موقف كسرى من مصاهرة حمزة عن موقف الفرس من العرب. وكان كسرى في البداية مقبلاً على

مصاهرة حمزة لولا وزيره بختك الذي مثل الدافع الشرير في نفسه تجاه العرب، في حين مثل بزرجمهر وزيره الآخر ضميره الخيّر في موقفه منهم، أو هو بالأحرى ضمير الأمة الفارسية الخيّر في موقفها من العرب بحسب تعبير السيرة موضوع الدراسة.

لقد نظر بختك إلى العرب بمنظور فوقي يرى من خلاله العرب أدنى منزلة من الفرس، مما دعاه لأن يثني كسرى عن قراره بتزويج مهردكار من حمزة: "رأيت منك اليوم ما أدهشني وجعلني لا أصدق أنك كسرى أنو شروان وأخاف أن يكون قد طرأ عليك أمر غير من شرفك وناموسك وطباعك. قال لما هذا وما الذي أدهشك؟ قال تنازلك بزواج مهردكار إلى هذا البدوي فقد أنزلت من قدرك وقدر بلادك وبني جنسك إلى أدنى درجة وأنت تعلم أن الأمير حمزة لو أراد الزواج بأقل بنت من بنات فارس لامتنعنا عليه"[49].

ويجد بختك ما يدعم وجهة نظره تجاه العرب، فحين وصف بزرجمهر العرب بعزة النفس قال بختك: "من أين للعرب مثل هذه اللغة وهم مشهورون بالسلب والنهب والسبي يعيشون من السرقات والشحادة ولا يعرفون غير ذلك. فقال لهم بزرجمهر إن عملهم هذا لا يحسب من قبيل السرقة إذا غار بعضهم على البعض واكتسب ماله بقوة السيف، على أن حفظ الزمام والمروءة عندهم، فلا يضيعون حرمة الجار ولا يتعدون إلا على العدو، ويحسنون إكرام الضيوف إلى غير ذلك"[50].

ولعل من الملحوظ أن كلا الوزيرين يتحدثان عن منظومة قيمية واحدة هي المنظومة البدوية القبلية التي تناول الباحث بعض ملامحها كما بدت في السيرة[51]، غير أن ما ينبغي الالتفات إليه في هذا السياق هو طبيعة تعامل العرب مع هذه المعطيات، فقد انتهت علاقة حمزة بمهردكار إلى الزواج دون موافقة كسرى، ولا شك في أن طبيعة العلاقة بين حمزة ومهردكار تشير إلى نزعة التقارب بين العرب والفرس، وإن لم يكن هذا التقارب قد اكتمل بحكم عدم موافقة كسرى، غير ان تعاطف بزرجمهر مع العرب ومساعدته لهم ثم انضمامه إليهم يشير إلى ذلك الاندماج بين القوميتين، خاصة وأن بزرجمهر شخصية غير اعتيادية في السيرة، فلولاه ما تحقق انتصار العرب، ويؤيد ذلك مقتل بختك وابنه بختيار وتحالف فرمزتاج كسرى الفرس مع حمزة العرب.

لم تكن نظرة العرب إلى الفرس في السيرة كلها نظرة عداء، بل كانت تنم عن احترام عميق لملكهم ولغتهم ووجودهم القومي، فقد حرص حمزة حرصًا شديدًا على عدم مقاتلة الفرس، وحين اقترح عليه عمر العيار خطف مهردكار، قال: "هذا لا أفعله قط ولا أريده... كيف أسرق بنت كسرى وصار بيني وبينه معرفة ومودة"[52]، وقد انتهت السيرة بإعادة كسرى إلى عرشه في المدائن، إذ أقام الأمير حمزة البهلوان مدة وجيزة عند الملك كسرى أنو شروان حسب طلب مهردكار التي كانت تود بأن تقيم تلك المدة في بلادها وفي البيت الذي ترعرعت به"[53].

لا ينفصل الوعي الشعبي عن جوهر الحضارة العربية الإسلامية التي قامت بالأساس على التمازج بين الأعراق والاستفادة من تراث الأمم المتنوعة، وإن كانت سيرة "حمزة العرب" قد أقامت فاصلًا بين الأمتين العربية والفارسية، فإن ذلك لم يكن إلا من قبيل الحفاظ على كينونة كل من هاتين الأمتين المستقلة، فيما كانت الحروب التي قامت بين حمزة وكسرى إشارة إلى محاولة للتخلص من ترفع الفرس على العرب في إطار ما شاع عن مفهوم الشعوبية الذي ساد أثناء اندماج هاتين القوميتين في الحضارة العربية الإسلامية، بل إن شخصية بزرجمهر التي انضمت إلى العرب تشير إلى عرفان العرب بالاستفادة من حضارة الفرس، إذ أصبح بزرجمهر الرجل الحكيم القادر على التنبؤ بالمستقبل رجلًا من رجالات العرب.

ولا شك في أن النظرة الشعبية على الرغم من استلهامها من التاريخ تتجه في الأغلب إلى التضخيم والتهويل، فالشعوبية كانت أمرًا معيشًا يمس الحياة اليومية للناس، ما جعلهم يتناولونه من خلال أكثر الفنون الأدبية الشعبية رواجًا وهو السيرة الشعبية التي لم تتجاوز عمق التكوين الحضاري للحضارة العربية الإسلامية على الرغم من التهويل الذي جاء في إقامة الهوة بين العرب والفرس، على أن آدابًا أخرى غير شعبية ستكون أقرب إلى الواقعية كما هو الحال في بخلاء الجاحظ الذين كان معظمهم من الفرس.

لم يتوقف الوعي الشعبي على العلاقة بين العرب والفرس بل نجد حمزة يتزوج من ابنة ملك اليونان وينضم الحكيم أسطفانوس إلى حمزة[54]، وينجب أبناء من ابنة ملك اليونان. ولا ينفصل هذا التقارب مع اليونانيين عن استيعاب الحضارة العربية الإسلامية لمنجز الحضارة الإغريقية، غير أن عدم وجود احتكاك مباشر بين العرب واليونانيين جعل هذا الاستيعاب في السيرة سهلاً وسلميًا تسودهُ المودة والاحترام.

الملك والسلطة:

يبدو وصف مظاهر الملك لافتًا في السيرة، إذ يظهر الوصف التفصيلي لمائدة كسرى: "ونظر الأمير حمزة إلى ما على المائدة فوجد صحونًا من الذهب تضيء مثل الكواكب وهي تلمع وعليها من المآكل الفاخرة ما لم يذقه قط من طيور مقمرة بالسمن... وعند كل صحن فوطة من الحرير المزركش وملعقة وشوكة من الذهب مما تأكله أهل الحضارة، ولدى جلوس الأعجام على المائدة أخذ كل واحد منهم ملعقة وشوكة وبدأ بالأكل وبقي حمزة جالسًا لم يمد يدًا إلى الطعام، فطلب كسرى من بزرجمهر أن يسأله لم لا يأكل، فقال له إني ربيت على عادة العرب ولا أريد أن آكل بغير عاداتي وأنتم تأكلون هنا بالواسطة أن تجعلون بين يديكم وفمكم واسطة وعندي إذا شئتم أكلنا بأيدينا"[55].

إن التركيز على نظرة حمزة إلى المائدة يشير إلى إعجابه بمنظر السفرة في حين يبدي تعلقاً بحياة الفطرة في أسلوب تناول الطعام، ولعل في هاتين الرغبتين ما يتضمن مفتاح النظرة الشعبية إلى الملك والسلطة، فقد توجه العرب إلى تعيين ملك عليهم، وهو قباط ابن حمزة من مهردكار. كما جاءت لحمزة مقومات الملك المتمثلة في البهرجة، المماثلة لبهرجة ملك الفرس كسرى، فحصل على صيوان إليون شاه أبي الجنية "أسمابري" الذي أحضره له المارد كندك: "اعلم يا سيدي أن "أسما بري" حيث عرفت أنك ستقاتل أكبر ملوك الإنس وهو كسرى أنو شروان وأنك بعد أن حصلت على ثياب السيد سليمان التي لا نظير لها في عالمي الإنس والجان وكذلك اليقظان وعدّته بعثتني إليك بصيوان أبيها إليون شاه الذي إذا رأيته انبهرت واندهشت منه، أعظم من صيوان كسرى بألوف المرات وعليه في كل عامود من عواميده الذهبية جوهرة بقدر البطيخة لا بل أكبر كان يجلس فيه في أيام المواسم والأعياد.."[56].

لم تكن مقومات الملك الغيبية هذه معزولة عن محاولة تثبيته على الأرض، إذ نجد توجها نحو ترسيخ ركن مهم من أهم أركان الدولة، وهو العدل، فعندما تكشف للعرب خيانة "زوبين الغدار" و"أفلنطوش" أقام الملك لهم محكمة: "قال السلطان لا بد من محاكمتكم فإذا كنتم كما قلتم وكان الحق معكم عفونا عنكم وإلا حكمنا عليكم بالقتل أو بالقصاص حسب ما استحقيتم، ثم إنّ السلطان قباط أقام مجلسًا للحكم مركبًا من أسطون الحكيم والملك أسطفانوس جد عمر اليوناني وثلاث ملوك التركمان والنجاشي وفرهود ملك السودان، وقال هؤلاء لا يمكن أن يحكموا ظلمًا وعين في اليوم الثاني محاكمة المجرمين، فمن كان له دعوى عليهم فليدع في ذاك الوقت"[57].

لا شك في أن تفاصيل المحاكمة تبقى في إطار النظرة الشعبية التي لا يمكن أن نقيمها وفق قوانين العصر الحديث، لكن ما ينبغي الإشارة إليه أن إرساء قواعد الدولة الملكية بقي في إطار محدود، فقد جاءت هذه المحاكمة لأفراد معتدين على العرب خططوا للنيل منهم، وقد كان من الطبيعي أن يقتلوا دون محاكمة، لكن من كان يستحق المحاكمة لم تقع عليه أي عقوبة في إطار الدولة الملكية، فقد اكتفى الراوي بذلك التهميش الاجتماعي لشخصية الأمير قاسم الذي أخطأ أخطاء كثيرة بحق بديع الزمان وغيره من شخصيات السيرة.

لقد جاء إعجاب حمزة العرب بمُلك الفرس من منطلق انبهار بمظاهر الملك الشكلية، وقد حصل حمزة والعرب المحيطون به على بعض هذه المظاهر، لكنها تشكلت وفق التكوين القيمي الذي يحتكم إليه حمزة العرب والمحيطون به، فبقيت القيادة للفارس المقدام ولم تتحول إلى الملك، حتى أن الرسائل الأخيرة في السيرة كانت باسم حمزة ولم تكن باسم الملك: "من مبيد الأبطال وقاهر الرجال ومذل الفرسان من خضعت له الإنس والجان الأمير حمزة البلهوان إلى آفة الرقابة ملك العبيد"[58]. وهذا التجاور للملك في الرسالة وفي كل السلوك القيادي في السيرة يمثل

تجاوزًا لمواصفات الملك التي تم اختياره على أساسها، فحين اختار الفرسان شخصية قباط كان ذلك على أساس مواصفاته التي تمتع بها، فقد منعته مهردكار "من ركوب الخيل ومباشرة علم القتال مكتفية بأن علمته العلوم الأدبية والسياسية"[59].

التعامل مع المرأة:

لم تظهر المرأة العربية في سيرة حمزة البهلوان إذا ما استثنينا نموذجي القناصة وسلوى اللتين ورد ذكرهما في الجزء السابق من البحث، وعلى الرغم من كون ابنة الأمير قاسم عنصرًا فاعلاً في السيرة إذ كان يسعى "نور الدهر" ابن بديع الزمان للزواج بها، إلا أن الفتاة لا تذكر باسمها ولا تظهر عواطفها أو سلوكاتها، بعكس مهردكار وطوربان اللتين أبدتا عواطفهما بوضوح تجاه عشيقيهما.

وفي حين اختفت المرأة العربية اختفاء شبه كامل عن السيرة ظهرت المرأة الأعجمية والفارسية بالتحديد ظهورًا واضحًا، فكانت محفزًا أساسيًا لأحداثها، ومثلت غاية يسعى إليها العربي، إذ خاض حمزة حروبًا عديدة كانت مهردكار محفزًا أساسيًا فيها. وإن كان لمهردكار رمزيتها المتعلقة بالتواصل مع القومية الفارسية، فإن ذلك لا يلغي البعد الاجتماعي إذ يظهر ذلك الحضور القوي للمرأة الفارسية.

لا ينفصل هذا الحضور القوي للمرأة الفارسية عن الحضور القوي للفرس بوصفهم أصحاب ملك، كما أن انجذاب الشخصية العربية للمرأة الفارسية لا ينفصل عن ذلك الانجذاب لمظاهر الملك التي تناولها الباحث سابقًا، فمهردكار ابنة كسرى وطوربان ابنة أخيه، على أن انجذاب الشخصية العربية للمرأة الأعجمية لم يكن معزولاً عن صفاتها في الأغلب، فقد أعرب حمزة عن حبه لمهردكار من منطلق صفاتها: "ولولا صدق مودتي وتأكدي أنها ذات شعائر حميدة عربية لكانت أعمال أبيها قللت من حبي إياها فاتخذت غيرها زوجًا، إلا أن صفاتها الحسنة تدعوني إلى أن أجهد النفس فأنتشلها من بين الفرس كونهم لا يستحقونها"[60].

يظهر هذا الشكل من الارتباط بمهردكار بإزاء أشكال عديدة كان لكل منها دلالته، فقد جاء زواج حمزة من سلوى بعد أن طلب أخوها المعتدي حامي السواحل منه الزواج بها، وكان ذلك في إطار المحافظة على تماسك المنظومة القيمية لدى حامي السواحل ابن صيدا المدينة العربية، إذ أبدى هذا الرجل قدرة كادت تفوق قدرة حمزة في القتال، أما "زهربان" ابنة ملك اليونان فقد تم زواجها من حمزة بموافقة أبيها وتفهم كلا الطرفين لثقافة الآخر، إذ أبدت "زهربان" معرفتها بالثقافة العربية، كما أنها كانت تعرف اللغة العربية الفصيحة[61]: "دخلت زهربان تتجلى كأنها العروس وقد عبقت روائحها الزكية في أنف الأمير... فنهض إليها ولاقاها ببشاشة وترحاب وأجلسها إلى جانبه فارتاح بالها نوعًا ما وسكن جأشها، لأنها كانت بارتياب من جهة مواجهته لا

تعرف ما يكون من أمرها وأمره، أنه هل يستحسن عملها أو يستقبحه وظنت مثل هذا الظن لعلمها أن العوائد العربية ترى أن من الواجب تأدب النساء في إجراءاتهن تأدبًا كاملاً فلا يسعين خلف من أحبته"[62].

وفي مقابل ذلك أبدى حمزة تفهمًا لثقافة أهل اليونان: "ورأى النساء سافرات الوجوه مثل الرجال فعلم أن تلك عادة مألوفة لعدم وجود الغش والخداع بينهم، وإن كل واحد منهم يركن للآخر حق الركون ويطلق لزوجته ونسائه الحرية ليقاسمنه في حقوق الراحة وأن امرأة الغير المستقيمة لا تستقيم إذا حجبت ومنعت عن مرأى الناس بل ربما تصورت أن مرأى الناس يبيح لها المنكرات فحجبت عنه وبالعكس المرأة المستقيمة لا تقهر إذا أسفرت غير أن الاختلاف في العوائد لا يحط من قدر أهلها عند ذوي العقول العاقلة"[63].

لم يتوقف الأمر على هذا التفهم، بل إننا نجد حمزة يتزوج بزهربان على الطريقة المسيحية[64]. ومن الواضح أن هذا التفهم والقبول الواضح لثقافة الآخر لا ينفصل عن قبول التلاقح الحضاري الذي حصل بين العرب والتراث الإغريقي. ويتبين للفاحص ثبوت هذا التفسير من خلال اختلاف ظروف الزواج من مريم ابنة قيصر ملك الروم الذي قامت بينهم وبين العرب المسلمين حروب عديدة منذ نشوء الدولة الإسلامية، فقد تزوج حمزة من مريم ابنة قيصر على الطريقة المسيحية أيضا، ولكن بعد أن قتل أباها وولاها ملكة بدلاً منه[65].

لن يخوض الدارس كثيرًا في تفسير أحداث الزواج التي حصلت في السيرة، غير أن كثيرًا من هذه الزيجات عبّر عن رغبات الشخصيات في التسري أثناء رحلة السيرة الطويلة، أو أنه جاء تعبيرًا عن التنافس بين أكثر من شخصية كما هو الحال في حادثة بديع الزمان والأمير قاسم مع الأميرة حُسن[66]، وقد جاءت هذه الزيجات جميعها لتكون أساس التكاثر الذي أدى إلى ميلاد فرسان أشداء ساعدوا حمزة في حروبه وأنجدوه من مواقف الضيق التي وقع فيها. ولعل من أشدّ الظواهر لفتا للنظر في هذا السياق أن حمزة أو أبناءه أو أحفاده لم ينجبوا من الإناث سوى ابنة الأمير قاسم التي لم يرد اسمها في السيرة.

على الرغم من تجاوز وجود المرأة في إطار النسل العربي وتجاهله بقيت تحظى بتعاطف البطل، فهو "يرى أن مشاعر النساء هي أرق جدًا من مشاعر الرجال وقلوبهن أكثر تعلقًا وحفظًا للمودة منهم وعقولهن أقرب للتصديق... فإذا رغبت المرأة بالأمانة واعتمدت على الوفاء وأخلصت الحب قدرت تلك الأمانة حقها ووفت وفاءً لا يوجد بواحد من الرجال"[67]. ولعل من الملحوظ في هذا القول أن قيمة الوفاء حين تتعلق بالعلاقة بين الرجل والمرأة تكون ألصق بالأنثى لكي تنال المرأة مكانة طبيعية في إطار المنظومة القيمية، في حين يتاح للرجل أن يخرج عن هذه القيمة بالزواج بأكثر من واحدة.

لقد برز ذلك في العلاقات العديدة التي أقامها حمزة وأبناؤه مع عشيقاته اللائي تزوجهن دون إظهار شعيرة من شعائر الزواج، كما هو الحال مثلاً في زواج رستم من "قمر شاه" و"ياقوت شاه" في ليلة واحدة[68]. وقد أبدى الراوي تعاطفًا مع مهردكار بعد أن طردها حمزة وحلف بأن تعود إلى أبيها كسرى: "كانت تحافظ على راحته ولا ترضى أن تقلل من حبه ولو عاملها بتلك المعاملة عالمة أن العرب لا يكرمون النساء وأنهم يتخذونهن للخدمة وقضاء الحاجة فقط"[69].

لقد أبدت مهردكار في موضع آخر مقارنة مختلفة بين العرب والعجم إذ شجعت طوربان على الزواج بعمر اليوناني: "حسنًا فعلت يا بنت العم فإن العرب قوم أصحاب وفاء وزمام لا يهينون الزوجة ولا يظلمونها ولهم الشريعة المطهرة والناموس يبذلون كل النفيس والنفائس في المحاماة عن العروض ورفع الأذى بخلاف قومنا الأعجام، فإنه لا اعتبار لمثل ذلك في صدورهم فيكرمون الزوجة أحيانًا وأحيانًا يتخلون عنها لغيرهم كأنها غريبة عنهم"[70].

يبدو أن هذين القولين يعبران عن تنافر، غير أنهما في الحقيقة صادران عن المنظومة القيمية نفسها، وهي منظومة منسجمة في داخلها، فالمحاماة عن العرض وحماية المرأة تنسجم مع وجودها لقضاء الحاجة، ومع كونها كائنًا رقيقًا وجميلًا، ومن هنا تبرز المواصفات التي تجعل من امرأة شخصية قادرة على القيادة أو الاستقلال، فقد استطاعت المرأة في سيرة ذات الهمة أن تصل إلى درجة القيادة بعد أن دافعت عن شرفها بقوة، كما استقلت سلوى عن حمزة فكان شرفها وشرف حمزة وابنها بديع الزمان أغلى عليها من حياتها.

تجديد الهوية القومية:

مارست سيرة حمزة البهلوان عملية أشبه ما تكون بالهدم والبناء، إذ جعلت شخصية بديع الزمان تتفوق على شخصية البطل، وإن كان هذا التفوق لم يكتمل بوضوح. ولعل في سرد الحكاية المتعلقة بتجديد الهوية ما يجعل التناول أكثر جلاءً ووضوحًا، فقد تقدم بديع الزمان لمبارزة "مشاهد أبو الخنجر" أحد الفرسان الذين قدموا لمساعدة "الخوند" في مدينة "السبائل"، لكن الأمير قاسم صاح به وقال له: "ارجع يا ابن الصياد فما أنت من رجاله ولا تلقاه في مجاله ولا بد لي من البروز إليه، وإذا سبقتني قتلتك ولحقتك إلى وسط الميدان"[71].

لم يكن هذا التعدّي من الأمير قاسم على بديع الزمان هو الأول، فقد حاول مرات عديدة قتله قبل ذلك، وصفح عنه، "وكان قد امتلأ من أعمال ابن أخيه حتى لم يعد يسمع فأراد أن يجعل الفاصلة في تلك الساعة"[72]، وحين تبارز بديع الزمان وقاسم نادى الفرسان حمزة فوقف بينهما وأظهر تضايقه من عمل بديع الزمان: "إن قاسمًا مثلك عندي وأشفق عليه أكثر منك وأرغب فيه إكرامًا لأبيه فإذا أردت أن تبقى بيننا فأهلاً وسهلاً، وإلا فارحل حيث أردت فإننا في غنى عنك"[73].

بقي الراوي بعد ذلك مع بديع الزمان في مساحة نصية طويلة تجاوزت مئة وعشرين صفحة مرّ خلالها بمغامرات عديدة تدل في مجموعها على تجديد الهوية العربية من خلال شخصية بديع الزمان التي ينبع اختيارها من الحفاظ على أساس التقاليد العربية المتمثلة بالحفاظ على النسل والشرف العربي، إذ فضلت أمه سلوى الموت على أن تسلم جسدها لأحد. وسوف يحاول الباحث إبراز ذلك من خلال تناول رحلته هذه، فعندما خرج بديع الزمان من عند حمزة واجه في طريقه قرية ونزل عند شيخها الذي أكرمه، فأعطاه بديع الزمان خمسين دينارًا، فشكره وقال بأنه سيدفعها جزية للأمير ضامر الذي يجمع الجزية من القرى المحيطة، إذ سيوفر ذلك عليه تقديم جزء من الماشية، وهذا ما دعا بديع الزمان لمبارزة الأمير وقتله من أجل إحقاق الحق وإيقاف دفع الجزية[74].

مر بديع الزمان بعد ذلك بأحداث انتهت به إلى مدينة الغمام، إذ أقام عند صاحبها الملك "سندروس"، وقد لاحظ بديع الزمان أن ملك المدينة يدفع مالاً كثيرًا لقاء تفاحتين يقسمهما أقسامًا عديدة بين زوجته وحاشيته وضيفه بديع الزمان، وعرف أن ذلك بسبب أسد يمنع أهل المدينة عن ثمار بستانها، فتصدى بديع الزمان للأسد وقتله، لكنه لم يعد إلى المدينة، فقد أخذه الخضر إلى بلاد الظلمات بينما بقي الملك وحاشيته ينتظرون بعيدًا عن البستان.

وإذا كانت قصة بديع الزمان مع شيخ القرية تشير إلى نزوعه نحو إحقاق الحق والدفاع عن المستضعفين والمظلومين، فإن قصته الطويلة نسبيًا في بلاد الظلمات تحمل دلالات عديدة؛ أولها يتأتى من أول حدث فيها، وهو إحضار الخضر له إلى هذه البلاد، فقد أضفى تعامله مع الخضر على شخصيته صفة المباركة، وهي الصفة التي لم يحزها أي من أبناء حمزة سواه مما يؤكد أهمية هذه الشخصية ويضفي عليها شرعية أو قداسة أكبر لسلوكاتها ومواصفاتها.

تبدأ قصة بديع الزمان في بلاد الظلمات من مصادفته شيخًا وغلامًا في كهف، فيسأل بديع الزمان الشيخ عن البلاد التي جاء إليها وعن قصتهما، وإذا به في بلاد الظلمات التي تتكون من ستة أقاليم واسعة جدًا، وعلى كل منها حاكم، أما الشيخ والغلام الذي معه فهما من الإقليم الأول الذي كان يحكمه أبو الغلام، وبعد أن مات أبوه أقيم الغلام مكان أبيه بوصاية الشيخ الذي كان وزيره، لكن عم الغلام كان طامعًا بالحكم فحاول قتله وهرب إلى الوزير الذي ذهب ليستجير بحاكم الأقليم الثاني[75].

رافق بديع الزمان الشيخ والغلام في رحلتهما خلال الأقاليم الستة، واستطاع أن يثبت قدرته على القيادة من خلال التسامح والعفو عن مبارزيه، إذ حافظ خلال رحلته كلها على عدم إراقة الدماء مكتفيًا بمبارزة حكام الأقاليم. وكان كلما اتجه إلى إقليم يجد "اصتلبر" عم الغلام قد استجار بالحاكم من بديع الزمان ومرافقيه مما يدعوه إلى مبارزته، واستمر في ذلك إلى أن وصل

إلى "بهران أبي الزنجير" الذي لا تعمل في جسمه السيوف فاستمر في مبارزته ثلاثين يومًا دون جدوى، وعندما يئس من قدرته على التغلب عليه خرج في البر، وقصد جبلاً تبين في وسطه شعاع أشبه بنور القمر، فتسلق الجبل ورأى هناك بابًا من النحاس "ورأى مكتوبًا بالخط الفارسي عند الباب هذه الأسطر بخط تخين فقرأها وهي: "يا من وقف على باب الكنز إن كنت بديع الزمان بن الأمير حمزة البهلوان بن الأمير إبراهيم حاكم مكة المطهرة فاقرأ حسبك ونسبك وضع يدك على الباب فيفتح حالًا وهاك خادم الكنز فيسلمك ما أمنته عليه"[76].

كان هذا الكنز هو ذخائر السلطان الفارسي بهزاد "الذي فاق على كل العباد وخدمته المردة والعفاريت وطاعته ملوك الإنس والجان"[77]، وقد تضمنت هذه الذخائر كنوزًا عديدة من صيوان بهزاد وسيفه وخنجره الماسيان، غير أن أهمية هذه الذخائر لا تتوقف على المكانة التي حصل عليها بديع الزمان بحصوله وصية السلطان "بهزاد"، فبالإضافة إلى دلالة هذا الحدث على الجاه الذي وصل إليه بديع الزمان، فإن ذلك يشير أيضًا إلى ذلك التصالح مع القومية الفارسية بل والاستفادة من تراث هذه القومية بتراضٍ من رموز القوميتين، مع الحفاظ على رمزية النسل العربي إذ أشارت العبارة إلى سلالة بديع الزمان.

استطاع بديع الزمان أن يتغلب على "بهران أبي النجزير" من خلال مساعدة الخضر عليه السلام، وتمكن من الحصول على ولائه فرافقه إلى الإقليم السادس بعد أن أنقذ أخاه رستم من الساحرة التي تزوجت به دون أن يفصح عن شخصيته الحقيقية، وإن كان حكام الأقاليم الأربعة الذين استجار بهم "اصتلبر" قد أجاروه فإن حاكم الإقليم السادس لم يجره: "وصبر إسحق إلى أن سمع كل كلامه ثم قال له إن من الواجب قبل أن أجيرك أن أعرف حقيقة الأمر والرجل الذي ينظر إلى العواقب بعين بصيرة ثابتة وإني مهما أردت أن أصدق كلامك وأساعدك لا يكون ذلك ضد الحق"[78]، وعندما رغب "اصتلبر" بالخلاص من "إسحق" رفض الأخير ذلك حتى مجيء أعدائه.

إن العقل الشعبي يضع من خلال شخصية "إسحق" حدًا لمفهوم من أهم المفاهيم السائدة عند الإنسان العربي، وهو مفهوم الإجارة، ليقترب من إحلال مفهوم العدل مكانه، فقد كان الملك إسحاق قاضيًا وحاكمًا في المصالح التي فيما بين حكام الأقاليم بحكم كونه أعقلهم "صادق النية لا يضر أحدًا ولا يطيع المتعدّي"[79]، وقد قدم بديع الزمان إسحق على نفسه: "اعلم يا سيدي أنك أنت السيد علينا والحاكم فينا ولك حق التقدم على الجميع"[80].

لقد طُبقت في هذا الموضع من حكاية بديع الزمان محاكمة مدروسة وعادلة لإصتلبر، فبعد أن شارف على قتل الغلام حكم عليه بالقتل: "مجازاة القاتل بالقتل، وهذا الشرير الخبيث قد قتل أم الغلام سليم لأنها حامت عن ابنها ولا ريب أن الله سبحانه وتعالى يتكدر منا إذا تركناه حيًا"[81]،

وقد توجه ملوك الظلمات جميعهم إلى طاعة بديع الزمان بعد محاكمة إصتلبر: "إذا أردت الرحيل من بلادنا وقبلت أن نكون في خدمتك فما من واحد يتأخر لأنك السيد العظيم والفارس الكريم نشأت في خير قوم وجبلت على فعل المعروف وإغاثة المظلوم والحكمة والاستقامة"[82].

عاد بديع الزمان إلى أبيه وقد مرّ بمغامرات أخرى في طريقه، وهي لا تختلف في دلالتها عن تلك المذكورة كإضفاء القدسية والمباركة على الشخصية، غير أن مما يستوقف القارئ في رحلة عودته انضمام الأسد والسلحفاة والزرافات إليه، فبينما كان يمشي انضمت إليه هذه الحيوانات. وأشار "الظلماني" إلى أنها كانت تصاحب "بهزاد". وهذا التحول إلى تدجين الحيوان الذي كان يقتله حمزة وبديع الزمان سابقًا لا يخلو من دلالة مهمة، فهو تحول إلى التحضر والتمدن والميل إلى الاستقرار بدلاً من الترحال.

في حين وصف بديع الزمان بهذه الصفات المتعلقة بالحكمة والاستقامة والانتصار للمظلوم جاء وصف حمزة بسرعة الغضب وقرب الرضا والحمق[83]، وبدا أن بديع الزمان سوف ينتصر على حمزة في المبارزة، لكن تعاطف الضمير الشعبي يبدو واضحًا مع حمزة، فقد عاد بديع الزمان ومعه ملوك الظلمات وعرف بنفسه على أنه "بهزاد" السلطان الفارسي واستمر في مبارزة حمزة أيامًا ولم ينتصر أحدهما على الآخر، بل إن بديع الزمان أسر من "كاووس شاه" في مدينة الدواليب؛ آخر مدينة حاصرها العرب في السيرة موضوع الدراسة، وكان "عمر العيار" قد استطاع أن يخلص بديع الزمان ومن معه من الفرسان من الأسر لكنه حوصر مع الفرسان واستطاع حمزة أن ينقذهم بعد أن قتل "كاووس شاه".

كأن الراوي بما يحمله من ضمير شعبي لا يريد لشخصية حمزة أن تتضاءل أمام شخصية بديع الزمان، فجعل حمزة يقوم بآخر عملية إنقاذ للفرسان من الأسر مضمنًا بذلك بديع الزمان وعمر العيار، والناظر إلى هذا التنافس الخفي بين شخصيتي حمزة وبديع الزمان يجب أن لا ينقاد إلى الظاهر، فتتبع مغامرة بديع الزمان الفريدة في دلالاتها يشير إلى نموذج جديد يستحق الالتفات ويأخذ أفضليته الاعتبارية.

خلاصة

تمثل سيرة حمزة العرب مثالا واضحا على الرؤية الشعبية للهوية القومية العربية، وقد تبدت ملامح هذه الهوية من خلال عدد من السمات والقيم التي صاغت الشخصية العربية في تعاملها مع مكونات المجتمع ومع القوميات الأخرى، ومن أهم هذه السمات التي شكلت الهوية القومية سمة العاطفية والانفعالية والتسامح والميل إلى الفطرة والبطركية، والإعلاء من قيم الإقدام كالشجاعة والفروسية والنخوة، والتقيد بقيم الإحجام كالارتباط بالكلمة والوفاء. وعلى الرغم من أهمية الفرد

في مجتمع السيرة إلا أن البطل يمثل الجماعة ويرتبط به ارتباطًا عضويًا. وقد برز الملمح القومي ملازما للملمح الديني الذي لا ينفصل عن تشكيل الهوية.

تجلت هذه المفردات التي شكلت الشخصية القومية في السيرة الشعبية في عدد من المفاهيم والمشكلات التي واجهت شخصيات السيرة، فصاغت العلاقة مع الآخر، وأبرزت مشكلات التعامل مع السلطة، ولم تكن بمنأى عن صيغة التعامل مع المرأة. وقد أبدى العقل الشعبي قدرة كبيرة على النقد الذاتي، فقدم نموذجا جديدًا في السيرة نفسها حاول من خلاله أن يؤسس لقيم جديدة لا تنفصل عن تلك التي جدّدها.

Folk Awareness of Arab National Identity: A Study in the Biography of Hamzah Al-Bahlawan – Hamzat Al-Arab

Shafeeq T. Al-Nobany, *Languages and Translation Department, Arts and Science College, Dhafar University, Oman Sultanate.*

Abstract

This paper aims to study the folk perspective of Arab National Identity through the folk biography of "Prince Hamzah Al-Bahlawan – Hamzat Al-Arab." This identity has been represented in certain values that make a point of reference to the hero's behaviors and other main characters. These values affect the events taken place in the biography and contribute to building relationships between the main characters represented the national identity and other characters represented as the 'other.' This research basically depends on identifying the concept of the national identity and its relation with the folk biography. Then the researcher attempts to find out the basic lexicons which form the national Arab identity and sheds light on the transfiguration of these lexicons in various concepts: dealing with others, authority and monarch, and treating women. Finally, the researcher aims to identify a tendency towards the renewal in the national Arab identity through the biography ('seyrah') itself.

Key words: Folk biography "seyrah", Hamzat al-Arab, National identity.

الهوامش

1 انظر: مرسي، أحمد: مقدمة في الفلكلور، القاهرة، دار الثقافة، ط2، 1981، ص73.

2 الغذامي، عبد الله: القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1، 2009، ص48.

3 المرجع نفسه، ص49.

4 المرجع نفسه، ص49.

5 حول مفهوم الشخصية القومية، انظر: هولتكرانس، إيكه: قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفلكلور، ترجمة: محمد الجوهري وحسن الشامي، القاهرة، دار المعارف، مادة: شخصية منوالية. وانظر أيضا: مادة: "الشخصية القومية".

6 لم تكن مهردكار مقتولة، فقد أنقذتها أسما بري من الموت.

7 انظر: الأمير حمزة البهلوان ـ حمزة العرب، المجلد الثالث، بيروت، مكتبة التربية، ط1، 1987، ص ص 111 ـ 187.

8 المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص 123. وقد تضمنت الاقتباسات من السيرة أخطاء لغوية فضل الباحث الإبقاء عليها كما هي حفاظا على النص.

9 المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص 153.

10 المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص 172,

11 المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص 172 ـ 173.

12 المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص 174.

13 المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 105.

14 المصدر نفسه، المجلد الأول، ص118.

15 المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص ص70 .73.

16 المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 67.

17 المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص197.

18 المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 217.

19 المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص 225.

20 المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص ص 225 ـ 226.

21 المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص ص 369 ـ 370.

22 حرب، طلال: بنية السيرة الشعبية وخطابها الملحمي في عصر المماليك، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1999، ص 136.

23 الأمير حمزة البهلوان ـ حمزة العرب، المجلد الأول، ص ص280 ـ 281.

24 المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص 94.

25 المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص94.

26 المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص 65.

27 المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص 88.

28 المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص 88.

29 المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص 293.

30 انظر: النوباني، شفيق طه: مفهوم الدين في السيرة الشعبية، مجلة أفكار، ع211، أيار 2006، ص ص 23 ـ 31.

31 الأمير حمزة البهلوان ـ حمزة العرب، المجلد الأول، ص 77.

32 المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 68.

33 خورشيد، فاروق: السير الشعبية، القاهرة دار المعارف، ص 37.

34 الأمير حمزة البهلوان ـ حمزة العرب، المجلد الأول، ص 281.

35 انظر مثلا: المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 290 وص292.

36 انظر: المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 284.

37 انظر: المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص ص324 ـ 325.

38 انظر: المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص 339.

39 المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص25.

40 المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص ص298 ـ 299.

41 فاروق خورشيد، السابق، ص31.

42 الأمير حمزة البهلوان ـ حمزة العرب، المجلد الأول، ص ص51 ـ 53.

43 المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص ص30 ـ39.

44 المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص 165.

45 المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص 71.

46 ذهني، محمود: الأدب الشعبي العربي: مفهومه ومضمونه، مطبوعات جامعة القاهرة بالخرطوم، 1972، ص 118.

47 الأمير حمزة البهلوان ـ حمزة العرب، المجلد الثالث، ص 189.

48 هناك حادثة جرت في السعودية تم فيها التفريق بين زوجين إثر عدم تكافؤ النسب. انظر: عبد الله الغذامي، السابق، ص101.

49 الأمير حمزة البهلوان ـ حمزة العرب، المجلد الأول، ص 136.

50 المصدر نفسه، المجلد الأول، ص85.

51 لم تعرض السيرة للمنظومة البدوية بشكلها المكتمل وإن كانت تحمل الكثير من مفرداتها.

52 الأمير حمزة البهلوان ـ حمزة العرب، المجلد الأول، ص 101.

53 المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص 403.

54 المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 229.

55 المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 93.

56 المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص 88.

57 المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص 323.

58 المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص 390.

59 المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص 295.

60 المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 214.

61 المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 231.

62 المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 236.

63 المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 230.

64 انظر: المصدر نفسه، المجلد الأول، ص24، وص259.

65 انظر: المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 249، وص259.

66 انظر: المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص 290.

67 المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 201.

68 المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص 25.

69 المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص 112.

70 المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص 165.

71 المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص 370.

72 المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص 370.

73 المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص 370.

74 انظر: المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص ص 372 ـ 374.

75 انظر: المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص ص 26، 27.
76 المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص 57.
77 المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص 58.
78 المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص 77.
79 المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص 78.
80 المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص 81.
81 المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص 82.
82 المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص 85.
83 المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص 72 وص 153.

قائمة المصادر والمراجع

الأمير حمزة البهلوان ـ **حمزة العرب**، بيروت، مكتبة التربية، ط1، 1987.

حرب، طلال: **بنية السيرة الشعبية وخطابها الملحمي في عصر المماليك**، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1999.

خورشيد، فاروق: **السير الشعبية**، القاهرة دار المعارف، (د.ت).

ذهني، محمود: **الأدب الشعبي العربي: مفهومه ومضمونه**، مطبوعات جامعة القاهرة بالخرطوم، 1972.

الغذامي، عبد الله: **القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة**، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1، 2009.

مرسي، أحمد: **مقدمة في الفلكلور**، القاهرة، دار الثقافة، ط2، 1981.

النوباني، شفيق طه: مفهوم الدين في السيرة الشعبية، **مجلة أفكار**، ع211، أيار 2006.

هولتكرانس، إيكه: **قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفلكلور**، ترجمة: محمد الجوهري وحسن الشامي، القاهرة، دار المعارف، (د.ت).